المبادرة اللّغويّة

مفهومها وأقسامها وأغراضها

د. عمر بورنان

جامعة أكلي محند أولحاج بالبويرة -الجزائر-

amarbnne@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2019/09/12 تاريخ القبول: 2020/11/05. تاريخ النّشر: 10 /2020/03

الملخّص: تواتر مصطلح (المبادرة) في الكتب العربيّة التراثيّة، ولم أجد من المحدثين من خصّه بالدّراسة، فحاولت في هذا المقال البحث عن معنى هذا المصطلح، ورأيت أن أنظر في الظاهرة اللّغويّة التي يدل عليها لأحدد أقسامها وأغراضها، فأدى بي البحث إلى ما يلي:

المبادرة ظاهرة لغوية تنقسم إلى قسمين اثنين: القسم الأوّل: المبادرة الذهنية، وهي ما يذهب إليه ذهن المستمع من المعاني بناء على ما يعرفه من نظام اللغة، وما يتوفر لديه من قرائن مقالية ومقامية. والقسم الثاني: المبادرة الكلامية يلجأ المتكلم إليها لأغراض ستة هي: مبادرة السامع كي لا يفهم ما لم يقصده المتكلم من المعاني، سرعة الرد لتوكيد الإنكار، مبادرة الحدث قبل فواته، مبادرة الفكرة قبل أختها، المبادرة إلى الكلام قبل تكلم الخصم، مبادرة نشاط السامع.

الكلمات المفاتيح: المبادرة ؛ بادر ؛ التبادر ؛ المبادرة اللغوية ؛ أغراض المبادرة.

Language initiative, definition and meaning

Abstract: The term “initiative” has been repeated in Arabic heritage books, but I have not found interest in this term by modernists, so I tried to look for the meaning of this term, and examine the linguistic phenomenon that is indicate to it, in order to identify their sections and purposes. I concluded that: the initiative is a linguistic phenomenon divided into two parts: 1- Mental initiative, which means what are the meanings are in the

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

mind of the listener based on what he knows about the language system and the communicative, situational clues available to him.

2- The speaker needs a speech initiative for six purposes: Initiate of hearer in order not to understand the meanings that the speaker did not means, Speed of response to confirm denial, Initiative of events in time, Initiative of the idea before other one, The initiative to speech before the opponent spoke, Initiative of Hearing Activity.

Key words: The initiative; initiate; Initiative; Language initiative; Purposes of the initiative.

1. **مقدّمة:** بسم الله الرّحمن الرّحيم ، والصلاة والسّلام على محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، وعلى من اتبعه بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد:

فإنّ بعض الموضوعات اللّغويّة ما تزال في حاجة إلى تعريف وتوضيح ودراسة ، ذلك لما يكتنفها من الغموض الناتج عن إهمال الباحثين المعاصرين إياها ، وإن كانت مبثوثة في كتب اللغويين القدامى على شكل تلميحات وإشارات يمر بها القارئ ولا يلقي لها بالا وهي من الأهمية بمكان ، من هذه الموضوعات مصطلح (**المبادرة**) الذي يتواتر ذكره في الكتب اللغوية العربية التراثية ولا نجد من الباحثين المعاصرين -في ما أعلم- من تناوله بدراسة مفردة ، لذلك أردت - وبالله التوفيق- أن أبحث في مفهوم هذا المصطلح ، وأبين أقسامه ، وأذكر الأغراض التي من أجلها يلجأ المتكلم إلى المبادرة في كلامه.

أفترض في البدء أنه مفهوم بلاغيّ يُلجأ إليه لتحقيق أغراض تخاطبية يعلمها المتكلم بناء على ما توفر لديه من قرائن مقالية ومقامية ، وهدفي من هذا المقال هو الوقوف عند مفهوم المبادرة ، وبيان أقسامها ، وذكر ما استطعت من أغراضها ، وكل ذلك مبثوث في بطون كتب النحو والبلاغة والتفسير وأصول الفقه ، وما عملي هذا إلا محاولة لجمع ما تفرق بين صفحات تلك الكتب والأسفار للفت انتباه الباحثين المعاصرين إلى هذه الظاهرة علهم يشبعونها بحثا وبالله التوفيق.

2. **مفهوم المبادرة اللغوية:** لم يرد - في ما أعلم - مصطلح (المبادرة اللغوية) في كتب القدامى ، وإنما ورد مصطلحان اثنان هما: (المبادرة) و(التبادر) ولا أرى داعيا لبيان الفرق بينهما فهما بمعنى واحد في أغلب السياقات التي اطلعت عليها ، وإنما اخترت المصطلح (المبادرة)

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

لسببين اثنين: السبب الأول أن مصطلح (المبادرة) هو الأصل لذلك استعمله سيبويه (ت180ه) في كتابه ولم يستعمل مصطلح (التبادر) إطلاقا، والسبب الثاني: مصطلح (المبادرة) أصلح للتعبير عن الأغراض[1] من مصطلح (التبادر). وأضفت إلى هذا المصطلح كلمة (اللغوية) لأميزه عما شاع استعماله من الألفاظ في عصرنا هذا في وسائل الإعلام وغيرها الدالة عن المبادرات غير اللغوية. وأصل هذا المصطلح الفعل (بَدَرَ) أو (بَادَرَ)، قال ابن منظور (ت711ه): «بَدَرْتُ إلى الشيء أَبْدُرُ بُدُوراً: أَسْرَعْتُ، وكذلك بادَرْتُ إليه... ويقال: ابْتَدَرَ القومُ أَمراً وتَبادَرُوهُ أَي بادَرَ بعضُهم بعضاً إليه أَيُّهُمْ يَسْبِقُ إليه فَيَغْلِبُ عليه... والبادِرَةُ من الكلام: التي تَسْبِقُ من الإنسان فى الغضب ؛ ومنه قول النابغة:

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ، إذا لم تَكُنْ له *** بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا[2]».

وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**ولاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا**﴾ [النساء، 06]؛ فالمعنى اللغوي يتضمن الإسراع كما ترى، والظاهر أن المصطلحين (المبادرة) و (التبادر) يحملان في معناهما اللغوي شحنة دلالية إيجابية، وقد أشار إلى ذلك ابن قيم الجَوزية (ت751ه) مبينا الفرق بين (المبادرة) و(العجلة) فقال: «المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها، ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبَهَا. فهو لا يطلب الأمورَ في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتُها بادر إليها، ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته. فهو بمنزلة مَن يبادر إلى أخذ الثمرة وقتَ كمال نُضجها وإدراكها. والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته، فهو لشدَّة حرصه عليه بمنزلة مَن أخَذَ الثمرة قبل أوان إدراكها. فالمبادرةُ وسطٌ بين خلُقين مذمومين: أحدهما التفريط والإضاعة، والثاني الاستعجال قبل الوقت[3]» وللمبادرة اللغوية في الاصطلاح معنيان: المعنى الأول ذكره هيثم هلال في معجمه فقال: «**التبادر** وهو من **علامات الحقيقة** لدى الأصوليين. ويُعَرَّف بأنه انسباقُ المعنى من نفس اللفظ مُجَرَّدًا عن كلِّ قرينةٍ. فكلمة ((ماء)) يحصل التبادر بانسباق الذهن إلى أنها الجسم السائلُ البارد بالطَّبْع، دون قرينة[4]» غير أن تخصيصه بكونه علامة من علامات الحقيقة فيه نظر، والمعنى الثاني لم أجده في ما رجعت إليه من كتب، وإنما استنبطته مما مر بي من سياقات وهو (الإسراع في الإخبار بشيء، ويكون بتلفظ المتكلم بكلام حقه الحذف، أو بحذف كلام حقه الذكر، أو بتقديم كلام حقه التأخير، أو بالإقدام على الكلام لغرض ما وكان حقه السكوت والإنصات) هذا الغرض سأذكره في اللاحق من المقال إن شاء الله.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

3. **أقسام المبادرة اللغوية:** انطلاقا من التعريفين السابقين ، يتضح أن للمبادرة اللغوية قسمين اثنين ، ولم أجد في ما رجعت إليه من كتب من أشار إلى أقسامها ، لذلك وجدتني مجبرا على اقتراح مصطلحين اثنين ليتسنى لي تقسيمها ، وأرى أن أقترح تسمية القسم الأول (**المبادرة الذهنية**) وتسمية القسم الثاني (**المبادرة الكلامية**).

3. 1. المبادرة الذهنية: يقصد بها ذهاب ذهن السامع إلى معنى واحد من بين المعاني التي يحتملها الكلام ارتكازا منه على العرف اللغوي أو على ملابسات الكلام ، وهذا ما يقصده الأصوليون في تعريفهم (التبادر) بقولهم: «... وفي الاصطلاح عرفوه بسبق المعنى من اللفظ إلى **الذهن** أو بسبق **الذهن** من اللفظ إلى المعنى ، ويحتمل أن يكون السبق في كلا التعريفين على معناه الحقيقي ، وهو التقدم ، ويحتمل أن يراد به الانتقال مجازا من باب استعمال اللفظ في لازم معناه ، لأن السبق يلزمه الانتقال من مكان إلى مكان[5]» وله حالتان اثنتان هما:

3. 1. 1. المبادرة إلى فهم المعنى الذي وضع له اللفظ: يذهب ذهن السامع إلى المعنى الذي وضع له اللفظ إن انعدمت القرائن الدالة على غير ذلك ، قال الاسترابادي (ت688هـ) مبينا سبب حذف أداة التعريف من اللفظ (أمس): «... ثم حذفت اللام وقدرت ، **لتبادر** فهم كل من يسمع أمس ، مطلقاً من الإضافة ، إلى أمس يوم التكلم ، فصار معرفة[6]» وبهذا أخذ الأصوليون ، قال السُّبْكي (ت771هـ): «حمل اللفظ إلى ما يتبادر إلى الذهن أولى[7]» ، على هذا ، فإن ذهن المستمع يبادر إلى المعنى الذي وضع له اللفظ إن عري الكلام من القرينة المانعة من ذلك.

3. 1. 2. المبادرة إلى فهم لازم المعنى الذي وضع له اللفظ: يَحمِل اللفظ - أحيانا- معنى ولازم ذلك المعنى ، ولهذا يتبادر إلى ذهن السامع المعنى ولازمه أو أحدهما ، فإن قال قائل: إن جئت أكرمتك. فهم المستمع من كلامه: وإن لم تأت لا أكرمك. لما رسخ في ذهنه من أن الإكرام متوقف على المجيء ، قال الشيرازي (ت1313هـ): «وكيف كان ، **فالمتبادر** من أدوات الشرط عرفا هو انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط المذكور في القضيّة إن كان واحدا فبانتفائه ، أو متعدّدا فبانتفاء الجميع[8]» وكذلك قال عن النهي[9] ، وتجدر الإشارة في هذا الموضع إلى أن المبادرة الذهنية تقع تلقائيا من السامع ، ولا أغراض لها ، إنما هي نشاط ذهني يبنى على ما يعرفه المستمع من نظام اللغة وعلى ما يملكه من قرائن أثناء سماعه الكلام.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

3. 2. المبادرة الكلاميّة: وهي كما أشرت سابقا (الإسراع في الإخبار بشيء ، ويكون بتلفظ المتكلم بكلام حقه الحذف ، أو بحذف كلام حقه الذكر ، أو بتقديم كلام حقه التأخير ، أو بالإقدام على الكلام لغرض ما وكان حقه السكوت والإنصات) ، ولها أغراض أجملها في العنصر الآتي.

4. أغراض المبادرة الكلاميّة: يلجأ المتكلم إلى المبادرة اللغوية لأغراض بلاغية يمليها عليه مقام الكلام ، وقد استطعت الوصول إلى ستة أغراض هي:

1.4. مبادرة السامع كي لا يفهم ما لم يقصده المتكلم من المعاني[10]**:** يحرص المتكلم على إيصال المعنى الذي يقصده ، لذلك يسلك سبلا لغوية ليمنع المستمع من أن يفهم غير الذي قصده من ذلك ما حكاه سيبويه في قوله: «... وسمعت عربيا مرة يقول لرجل سأله فقال: أليس قرشيا ؟ فقال: ليس بقرشيا ، حكاية لقوله... وإنما حكى مبادرة للمسؤول ، أو توكيدا عليه أنه ليس يسأله عن غير هذا الذي تكلم به[11] » فنَصْبُ كلمة (قرشيا) مع دخول حرف الجر عليها حكاية لما ذكر في كلام السائل ناتجٌ عن مبادرة المسؤول حتى لا يفهم معنى غير الذي سأله عنه ، ومن هذا الباب أيضا تقديم بعض الكلمات وإن كان حقها التأخير تجنبا لمعنى آخر قد يذهب إليه ذهن المستمع ، قال الرضي الاسترابادي: «وقوله: في سلام عليك ، إنه مختص بنسبته إلى السلام ، لأن أصله: سلمت سلاما... وإنما تأخر الخبر عنه مع كونه جارا ومجرورا لتقديم الأهم ، **وللتبادر** إلى ما هو المراد ، إذ لو قدمت الخبر وقلت: عليك ، فقبل أن تقول سلام ، ربما يذهب الوهم إلى اللعنة ، فيظن أن المراد: عليك اللعنة[12] » وفي هذا الكلام إشارة لغوية نفيسة ، وهي قدرة الذهن الفائقة على تحليل الكلام وفهمه ، إذ يستطيع ذهن المستمع توقع ما سيقال بمجرد نطق المتكلم شطرا من الكلام ، لذلك يتجنب المتكلم قول: (عليك سلام) ليمنع تبادر ذهن المستمع إلى معنى غير الذي يريد إيصاله إليه ، تكون هذه المبادرة في بداية تلفظ الكلام ، أو في وسطه قبل تمامه ، لذلك أقترح تسميتها (**المبادرة الكلامية القبلية**) ، وثمة نوع آخر من المبادرة الكلامية وهو أن يتلفظ المتكلم بكلام ويتمه ، ثم يظهر له أن المستمع قد يفهم غير ما قصده ، فيضيف في آخر كلامه كلاما آخر ليمنع المعنى غير المقصود ، أقترح تسميتها (**المبادرة الكلامية البعدية**) ومثالها ما ذكره الكفوي (ت1094هـ) في قوله: «والاشتراك في البديع ثلاثة أقسام: قسمان منها من العيوب والسرقات وقسم واحد من المحاسن: وهو أن يأتي الناظم في بيته بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكا

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

أصليا أو فرعيا فيسبق ذهن السامع إلى المعنى الذي لم يرده الناظم فيأتي في آخر البيت بما يؤكد أن المقصود غير ما توهمه السامع كقوله:

شيب المفارق يروي الضرب من دمهم *** ذوائب البيض بيض الهند لا اللمم

فلو لا (بيض الهند) لسبق ذهن السامع إلى أنه أريد بيض اللمم لقوله: (شيب المفارق)[13]» وهذا الضرب قليل جدا في النثر ، وهو في الشعر مقصود ليزيد الشاعر من جمال نظمه.

2.4. سرعة الرد لتوكيد الإنكار: قد يبادر المتكلم إلى إنكار ما سمعه من صاحبه توكيدا منه على إنكاره الشديد ، فتكون المبادرة بالسرعة في الرد عليه ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره سيبويه في قوله: «... وقد يقول الرجل: إني قد ذهبت ، فتقول: أذهبتُوه ؟ ويقول: أنا خارج ، فتقول: أنا إنِيهْ ، تُلحق الزيادةَ ما لَفِظَ به ، وتحكيه **مبادرةً** له وتبييناً أنه يُنكَر عليه ما تكلَّمَ به ، كما فُعِل ذلك في: مَنْ عَبْدَ الله ؟ وإن شاء لم يتكلَّم بما لَفِظ به ، وألحقَ العلامةَ ما يصحِّح المعنى ، كما قال حين قال: أتخرج إلى البادية: [أنا إنِيهْ][14]» نلمس في المثال الذي ذكره سيبويه فائدتين لغويتين جيئت من أجلهما المبادرةُ هما:

- **الفائدة الأولى:** الاختصار الذي يمكن المتكلم من سرعة الإنكار ، فيقول: أذهبتوه ؟ بدلا من أن يقول: أنا أنكر إنكارا شديدا أن تكون قد ذهبت ، من أجل هذه السرعة في الرد سميت هذه الظاهرة الكلامية (مبادرة).
- **الفائدة الثانية:** إلحاق الزيادة بما تلفظ به الشخص الآخر ، دلالة على إنكار ما تلفظ به لا إنكار شيء آخر ، وهذا مماثل لما رأيناه في إعراب (قرشيا) على الحكاية لإشعار المستمع بأنه ينكر كونه (قرشيا) لا شيئا آخر ، وهذا أمر جدير بالتدبر والتأمل.

ومن الأمثلة على سرعة الرد لتوكيد الإنكار ، قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ [الحشر ، 11] ، فـ «قوله -تعالى-: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ مبادرة بتكذيبهم إجمالا[15]» ثم بيَّن سبحانه كذبهم بالتفصيل في الآية التي تلتها فقال: ﴿**لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ**﴾ (الحشر: 12)، فغرض المبادرة بتكذيب المنافقين في هذه الآية هو توكيد إنكار قولهم ، وذلك ما كان فعلا.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

3.4. مبادرة الحدث قبل فواته: بعض ما يريد المتكلم التحدث عنه ، سريع الحدوث وسريع الانقضاء ، لذلك عليه أن يسرع عند التكلم قبل أن ينقضي الحدث الذي يريد التعبير عنه ، وإلا لما أدى كلامه فائدة ، فيلجأ إلى الإيجاز والاختصار ، وقد يحذف جزءا من الكلام خشية فوات الأوان ، قال الاسترابادي مبينا هذه المسألة: «... وأما الظرف ، والجار والمجرور فلأن نحو: أمامك ، ودونك زيدا ، بنصب زيدا ، كان في الأصل: أمامك زيد ، ودونك زيد ، فخذه فقد أمكنك ، فاختصر هذا الكلام الطويل ، [لفرض[16]]حصول الفراغ منه بسرعة ، ليبادر المأمور إلى الامتثال ، قبل أن يتباعد عنه زيد[17]» ومثل هذا يقال في ما يماثله ، كالذي ذكره سيبويه في قوله: «... أو رأيتَ رجلا يسدد سهما قِبَلَ القرطاس فقلت: القرطاسَ واللهِ ، أي يصيب القرطاسَ ، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاسَ واللهِ ، أي أصاب القرطاسَ. ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكَبَّروا لقلت: الهلالَ وربِّ الكعبة ، أي أبصروا الهلال[18]» إنما اختصر الكلام في قوله: (القرطاس والله) مبادرة منه قبل أن يطلق السهم ، واختصره في قوله: (الهلال ورب الكعبة) مبادرة منه قبل أن يعلم الناس ذلك فيكون قد حاز بالسبق تفضيلا ، وعلى هذين المثالين يقاس غيرهما.

4.4. مبادرة الفكرة قبل أختها: هذا الغرض هو الذي بنيت عليه نظرية النظم بأكملها ، وملخصه أنه عندما يكون في ذهن المتكلم عدة أفكار ويريد أن يعبر عنها ، فإنه يبادر بذكر واحدة قبل الأخرى مراعاة لما يقتضيه سياق الكلام ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في التفسير الوسيط في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء ، 31]: «وفي هذه الآية قدم ضمير الأولاد في منح الرزق على ضمير المخاطبين إذ قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقهُم وَإياكُم﴾ ليبين للآباء أن رزق الأولاد محل عناية واهتمام من الله تعالى فليس هناك داع - إذًا - للإشفاق والخوف من وقوع الفقر ، وقدم [ضميره الآباء[19]] في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقكم وَإياهم﴾ **للمبادرة** بطمأنة الآباء على أَرزاقهم وأنها واصلة إليهم لا محالة فلا موجب لقتلهم أولادهم[20]» فقدم - سبحانه - (نرزقكم) على (وإياهم) ليعلم الآباء بأن الأبناء لا يحولون بينهم وبين رزقهم فتطمئن قلوبهم ، وكذلك الأمر في سورة الإخلاص في قوله: «لم يكن له كفوا أحد ، قدم المسند: كفوا ، على المسند إليه: أحد ، للمحافظة على الفاصلة ، على رأي بعضهم. والمنصوص عليه في كتب التفسير المعتبرة أن التقديم **للمبادرة** إلى نفي المثل[21]» إذ كان المشركون يعترفون بوجود الله لقوله

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس ، 31] ، فلما كان هذا مستقرا في أذهانهم بادر بنفي المثل تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وقد اعتمد المفسرون هذا الغرض من المبادرة لتفسير نظم كثير من الآيات القرآنية ، نذكر منها تمثيلا قول الطاهر بن عاشور (ت1393ه) في تفسيره الآية ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف ، 02]: «وليست الفاء زائدة للاعتراض ولكنها ترجع إلى معنى التسبب ، وإنما الاعتراض حصل بتقديم جملتها بين شيئين متصلين **مبادرة** من المتكلم بإفادته لأهميته ، وأصل الكلام هنا: كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه[22] » وعلى ما ذكر يقاس ما لم يذكر.

5.4. المبادرة إلى الكلام قبل تكلم الخصم: يحاول المتكلم - أحيانا - أن يسبق خصمه إلى الشكوى ، يسمى هذا السبق (مبادرة) وذلك ليحكم له القاضي وإن كان ظالما ، وأحسن مثال عن هذا النوع من المبادرة ما ذكر في القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، قال تعالى: ﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [يوسف ، 25] ، فلم يذكر في القرآن الكريم أن أحدا سأل يوسف عليه السلام أو سأل المرأة عما حدث ، ولم يذكر فيه تبريرا ليوسف عليه السلام ابتداء ، بل كانت المرأة سبَّاقة إلى المطالبة بمعاقبة يوسف عليه السلام مبادرة منها ليحكم لها ، قال البقاعي (ت885ه) في تفسير الآية السابقة: «ولما علم السامع أنهما ألفياه وهما على هذه الحالة كان كأنه قيل: فما اتفق؟ فقيل: ﴿**قالت**﴾ **مبادرة** من غير حياء ولا تلعثم ﴿**ما**﴾ نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية ﴿**جزاء من أراد**﴾ أي منه ومن غيره كائنا من كان ، لما لك من العظمة ﴿**بأهلك سوءا**﴾ أي ولو أنه غير الزنا ﴿**إلا أن يسجن**﴾[23] » فلم تتريث امرأة العزيز حتى تُسأل ، ولكنها بادرت بإلصاق التهمة بيوسف عليه السلام محاولة منها تبرئة نفسها.

6.4. مبادرة نشاط السامع: للسامع قدرة محدودة على الاستماع ، يكون خلالها نشيطا مستعدا لاستيعاب ما يقوله المتكلم ، قال الجاحظ (ت255ه): «للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية[24] » تنقص هذه القدرة على الاستماع ، ويقل هذا النشاط إن أطال المتكلم كلامَه ، وأطنب أكثر مما يستدعيه موقف الكلام ، لذلك يجب على المتكلم أن ينتهز فرصة نشاط المتكلم ليقول ما يريد قوله ، ولا يستهلك ذلك النشاطَ في ما يمكن تجاوز قوله ، هذا الصنيع

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

يسمى مبادرة ، قال عبد الرحمن حبنكه (ت1425هـ) عند ذكره الدواعي البلاغية التي يؤتى بالاعتراض من أجلها فقال: «انتهاز الفرصة المواتية ، والمبادرة لبيان أمر ذي أهمية[25]» وضرب أمثلة عن ذلك منها قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**...﴾ [الفتح ، 27] ، وقال عنها: «عبارة: ﴿**إن شاء الله**﴾ جملة اعتراضية في أثناء كلام متصل في معناه ، **للمبادرة** إلى تعليم المؤمنين أن يقولوا في كل ما يرجون وقوعه أو يريدون إيقاعه مستقبلا: ﴿**إن شاء الله**﴾ وتعليمهم كيف يكون إدخال هذا التعليق على مشيئة الله في كلامهم[26]» فلا بد من أن أمنية المؤمنين هي دخول المسجد الحرام ، لذلك يجتهدون في الاستماع إذا ما كان الكلام يحمل وعدا بدخوله ، فأضاف سبحانه الجملة الاعتراضية ﴿**إن شاء الله**﴾ قبل أن يكتمل الكلام عن المسجد الحرام مبادرة لتعليمهم استعمال هذه العبارة أثناء نشاطهم في الاستماع ، والله أعلم وأحكم .

خاتمة:

أود في نهاية هذه المقالة المختصرة ذكر أهم النتائج التي توصلت إليها من تتبع مصطلح (المبادرة) في كتب اللغة التراثية وكتب أصول الفقه والتفاسير في النقاط التالية:

1. لم يذكر في كتب اللغويين العرب القدامى مصطلح (المبادرة اللغوية) إطلاقا ، وذكر مصطلحان اثنان: التبادر والمبادرة وهما في عمومهما بمعنى واحد.

2. يقصد بالمبادرة لغة: الإسراع ، ويقصد بها اصطلاحا أحد المعنيين: المعنى الأول: سَبْق ذهن المستمع إلى معنى دون غيره ، وقد اقترحت تسمية هذا القسم من المبادرة **(المبادرة الذهنية)** وقد توصلت إلى أنها تكون في حالة من الحالتين:

- الحالة الأولى: مبادرة الذهن إلى معنى اللفظ الذي وضع له ، وهنا يذهب المستمع إلى المعنى الحقيقي للفظ.

- الحالة الثانية: مبادرة الذهن إلى لازم المعنى الذي وضع له اللفظ ، وهنا يذهب المستمع إلى المعنى المجازي للفظ ، وفي الحالتين يعتمد المستمع على قرائن قولية ومقامية.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

والمعنى الثاني: إسراع المتكلم بإيصال فكرة ما وذلك بذكر ما حقه الحذف ، أو حذف ما حقه الذكر ، أو تقديم ما حقه التأخير ، أو الإقدام على الكلام لغرض في نفسه وكان حقه السكوت والإنصات. وقد اقترحت تسمية هذا القسم من المبادرة **(المبادرة الكلامية)**، ولهذا القسم ستة أغراض هي:

- مبادرة السامع كي لا يفهم ما لم يقصده المتكلم من المعاني وهي أوسع من الاحتراس ويتحقق هذا الغرض بنوعين من المبادرة ، النوع الأول: المبادرة الكلامية القبلية ، والنوع الثاني: المبادرة الكلا مية البعدية ، يؤتى بالنوعين لتوجيه المبادرة الذهنية .
- سرعة الرد لتوكيد الإنكار.
- مبادرة الحدث قبل فواته.
- مبادرة الفكرة قبل أختها: وهي التي ينظم الكلام بناء عليها.
- المبادرة إلى الكلام قبل تكلم الخصم.
- مبادرة نشاط السامع.

هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها من هذه الدراسة ، ولا بأس أن أذكر اقتراحين اثنين أراهما مناسبين لهذا الموضوع وهما كالآتي:

- أقترح إضافة باب في كتب البلاغة وفي علم المعاني تحديدا ، تدرس فيه (المبادرة اللغوية) بشيء من التفصيل ، وربطه بعلوم اللسان الحديثة كالتداولية وتحليل الخطاب.
- أقترح توظيف ما يمكن أن يؤدي به البحث في موضوع المبادرة اللغوية في التعليم ، إذ يستوجب على المعلم مراعاة نشاط المتعلمين ، وقدرتهم على الاستماع والإنصات ، إذ يبادر بتبليغهم ما له أولوية ويؤخر في درسه ما هو أقل أهمية ، والكلام نفسه يقال عن الإعلاميين والخطباء والكتاب وغيرهم.

هذه محاولة لتسليط الضوء على مصطلح (المبادرة) الذي تردد في كتب اللغويين العرب القدامى التي لا يُحاط بعلومها ، ولا يُتوصل إلى كثير من أسرار ألفاظها وعباراتها إلا بعد البحث والتنقير ، ولعل ذلك يشفع لي عند الباحثين المبرزين ، وطلبة العلم المجتهدين ، فيعذرونني عما وقعت فيه من الخطأ والزلل ، ويفيدونني -مشكورين- بما يرونه من إضافات وتصويبات ، والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

- **مصادر البحث ومراجعه:**

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. ابن عاشور ، محمد الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، دط ، تونس ، 1984م.
2. ابن قيم الجوزية ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ، كتاب الروح ، تح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي ، دار عالم الفوائد ، ط1 ، مكة المكرمة.
3. ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار الفكر ، ط1 ، بيروت ، 1428- 1429هـ ، 2008م.
4. أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ضبط يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، دط ، بيروت ، دس.
5. الاسترابادي ، الرضي ، شرح الرضي على الكافية ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قار يونس ، ط2 ، ليبيا ، 1996م.
6. البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، دط ، القاهرة ، دس.
7. الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط7 ، القاهرة ، 1418هـ ، 1998م.
8. الروزدري ، علي ، تقريرات آية الله المجدد الشيرازي ، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، د م.
9. السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، الأشباه والنظائر ، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 1411هـ ، 1991م.
10. سيبويه ، أبو بشر عمرو بن قنبر ، الكتاب ، تح: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط1 ، بيروت ، دس.
11. الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، الكليات ، ط2. بيروت: 1419هـ ، 1998م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
12. لجنة من العلماء ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة المصحف الشريف ، ط3 ، مصر ، 1413هـ ، 1992م.
13. الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكه ، البلاغة العربية أسسها ، وعلومها ، وفنونها ، وصور من تطبيقاتها ، بهيكل جديد من طريف وتليد ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1. دمشق ، 1416هـ ، 1996م.
14. هيثم هلال ، معجم مصطلح الأصول ، مراجعة وتوثيق محمد التونجي ، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع ط1 ، بيروت ، 2003م ، 1424هـ.

الهوامش:

[1]- لو نظر القارئ الكريم في إعراب كلمة (مبادرة) في النصوص التي سأذكرها في المقال وفي غيرها من النصوص في الموضع الذي يعلل فيه العالِم ظاهرة لغوية ما لوجدها مفعولا لأجله لا تشذ عن ذلك أبدا ، وهذا ما يدل على أن المبادرة إنما يؤتى بها لغرض ما ، فتأمل.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

[2]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، دار الفكر ، ط1 ، بيروت ، 1428- 1429هـ ، 2008م ، ج2 ، مادة (بدر).

[3]- أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ، كتاب الروح ، تح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي ، دار عالم الفوائد ، ط1 ، مكة المكرمة ، 1432هـ ، ج2 ، ص717 ، 718.

[4]- هيثم هلال ، معجم مصطلح الأصول ، مراجعة وتوثيق محمد التونجي ، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع ط1 ، بيروت ، 2003م ، 1424هـ ، ص65.

[5]- علي الروزدري ، تقريرات آية الله المجدد الشيرازي ، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، د م ، ج1 ، ص70.

[6]- الرضي الاسترابادي ، شرح الرضي على الكافية ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قار يونس ، ط2 ، ليبيا ، 1996م ، ج3 ، ص226.

[7]- تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، الأشباه والنظائر ، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 1411هـ ، 1991م ، ج1 ، ص274.

[8]- علي الروزدري ، تقريرات آية الله المجدد الشيرازي ، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، د م ، ج3 ، ص158.

[9]- علي الروزدري ، تقريرات آية الله المجدد الشيرازي ، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، د م ، ج2 ، ص101.

[10]- وهي أوسع مما يعرف (بالاحتراس) في علم المعاني ، ذلك أنه قد يلجأ المتكلم إلى المبادرة قبل ذكر شيء يؤدي بالمستمع إلى فهم معنى غير الذي قصده المتكلم ، وليس الاحتراس كذلك ، وما يؤكد أنها ليست به قول سيبويه المذكور أعلاه: «... وسمعت عربيا مرة يقول لرجل سأله فقال: أليس قرشيا؟....» فتأمل ، وقد تكون المبادرة احتراسا في بعض المواضع.

[11]- أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه ، الكتاب ، تح: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط1 ، بيروت ، دس ، ج2 ، ص413.

[12]- الرضي الاسترابادي ، شرح الرضي على الكافية ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قار يونس ، ط2 ، ليبيا ، 1996م ، ج1 ، ص235.

[13]- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، الكليات ، ط2. بيروت: 1419هـ ، 1998م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، ص120.

[14]- أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه ، الكتاب ، تح: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط1 ، بيروت ، دس ، ج2 ، ص422.

[15]- لجنة من العلماء ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة المصحف الشريف ، ط3 ، مصر ، 1413هـ ، 1992م ، ج8 ، 9 ، 10 ، ص1363.

[16]- هكذا في الكتاب المطبوع (لفرض) ويبدو أنه تصحيف والصواب الذي يقتضيه السياق (لغرض).

[17]- الرضي الاسترابادي ، شرح الرضي على الكافية ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قار يونس ، ط2 ، ليبيا ، 1996م ، ج3 ، ص89.

[18]- سيبويه ، الكتاب ، ج1 ، ص257.

[19]- هكذا أثبت في الكتاب (ضميره الآباء) ولعله خطأ مطبعي ، والصواب الذي يقتضيه السياق (ضمير الآباء).

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583

[20]- لجنة من العلماء ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة المصحف الشريف ، ط3 ، مصر ، 1413هـ ، 1992م ، ج4 ، 5 ، 6 ، ص753.

[21]- أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ضبط يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، دط ، بيروت ، دس ، ص139.

[22]- محمد الطاهر ابن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، دط ، تونس ، 1984م ، ج8 ، القسم2 ، ص12 ، 13.

[23]- برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، دط ، القاهرة ، دس ، ج10 ، ص67.

[24]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط7 ، القاهرة ، 1418هـ ، 1998م ، ج1 ، ص99.

[25]- عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني ، البلاغة العربية أسسها ، وعلومها ، وفنونها ، وصور من تطبيقاتها ، بهيكل جديد من طريف وتليد ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1. دمشق ، 1416هـ ، 1996م ، ج2 ، ص81.

[26]- عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني ، البلاغة العربية أسسها ، وعلومها ، وفنونها ، وصور من تطبيقاتها ، بهيكل جديد من طريف وتليد ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1. دمشق ، 1416هـ ، 1996م ، ج2 ، ص81.

EISSN :2602-5353 / ISSN : 2170-0583